« ديوان رسالة المشرق »

لمحمد اقبال

تعريب الدكتور عبد الوهاب عزام بك

و ديوان « اللمعات » للدكتور العربي

للاستاذ عبد المنعم خلاف

منذ أن عرفنا كفايات (الدكتور عبد الوهاب عزام) الأستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد والعالم الباحث الأديب ، ومن بينها كفايته الممتازة فى حذق الفارسية والتركية والأوردية، وأنا أسائل نفسى والناس : لماذا لا تنتفع الدولة والهيئات الاسلامية والجهات الأدبية بجهد هذا الرجل وفضله فى توثيق عرى الأخوة والصداقة بين شعوب هذه اللغات وبين مصر خاصة والعرب عامة ! فإن ما يفعله مثل هذا العالم الأديب المدرك فى توطد العلاقات بين هذه الأمم والشعوب أعظم وأفعل بكثير مما تفعله تلك العلاقات التقليدية الرسمية المحدودة الناشئة على الدبلوماسية الصرفة التى لا تجد مثل هذه الكفاية فى أغلب الحالات ، وإن وجدتها فأخلق بها أن تضيعها فيما تضيع من مواهب ومصالح وممان ...

ظل كان هذا السؤال يشغلنى منذ عشرين سنة ، وما كنت أظن أن ما أرجوه وأسأل عنه سيتحقق ؛ لما كنت أراه من انصراف مصر الرسمية ، إلى ما قبيل هذا العهد، عن التوجه للشرق الاسلامى وشعوبه وعلاقاته ، واتجاهها صوب الغرب لتكون منه ولو فى موضع الذيل .. وكان هذا وحده يشرفها فى نظر تلك الطبقة الممسوخة التى ضيعت كل شىء حتى نفسها .

ثم تدار كنا الله بلطفه فأظلنا ذلك العهد الذى ابتدأنا نتحرر منه من نظرات الممسوخين المصروفين من الخير الكامن فى الشرق الاسلامى، وتدرك بعض الحقائق عن أنفسنا وعلاقاتها الأصلية بالأمم الاسلامية والشرقية، وكان الانتفاع بمواهب الدكتور عبد الوهاب عزام بك فى توطيد تلك العلاقات من مفاتح هذا الاتجاه .

وأى انتفاع فى السفارة بين الأمم اعظم من القيام بجانب السفارة الدبلوماسية بالسفارة الفكرية وتعريف كل من الطرفين بعقل الآخر وروحه ومزج العقلين والروحين من طريق الترجمة والنقل للآثار الأدبية الموجهة للحياة ؟ !

* * *

لقد عرب الدكتور عبد الوهاب بك ديوان « نيام مشرق » أو رسالة الشرق للشاعر الفيلسوف محمد إقبال ، الذى كان قيام دولة الباكستان لمة من لمحات خاطره وشاعريته ، أوحى بها إلى مسلمى الهند فى خفقة من خفقات الالهام الذى يخلق الأحداث الجسام ويغير وجه التاريخ، فما لبثت أن تلقفها منه (رابطة مسلمى الهند) على يد البطل الحديدى رجل الكفاح والصبر (محمد على جنه) الذى نفخ فى عزم بنى دينه حتى خلقت باكستان فى لحظة من لحظات التاريخ الحاسمة المسعدة . .

ولقد عرفت روح الدكتور المترجم روح الشاعر الملهم من قبل أن نتعرف إلى أرضه ودياره ودولة أحلامه التى تحققت بعد وفاته بوقت قليل .

ولست بصدد تقديم الدكتور عزام بك بوصفه مترجما أديبا عالما أصيل الديباجة العربية عميق الإدراك مشرق الروح أمين الآراء فذلك منى جرأة لا تحمد ، بعد أن عرفته العربية علما من اعلام الفكر والقلم واللسان .. ولست كذلك بصدد عرض ديوانى رسالة المشرق واللمعات ونقدهما النقد اللائق بهما .. وإنما أنا الآن بصدد التنويه بظهور هذين الأثرين الفكريين فى ثوب من الشعر العربى المبين .

* * *

فى (رسالة المشرق) تحليق فكر ورفرفة روح ؛ فان إقبالا من الشعراء الفلاسفة الصوفيين الذين تزدوج فى تاجهم الشوق الصوفى بالعلم ازدواجا ينتج تلك « الحلقة المفقودة » من الآداب

الرفيعة التي يتمثل فيها جلال الانسانية وسموها ووفوفها في نصابها الأعلى .. وفيه كثير من الومضات التي يمتاز بها الشعر الصوفي ، قد تظهر صورا واضحة أو رموزا مبهمة أو ضبابا .

وفيه توجيهات عقلية ودينية في صور من الأمثال المضروبة على ألسنة الحيوان والنبات والجماد . وفيه تلك الخواطر الوجدانية المشتعلة ذات الجذوة الحمراء والمبتردة ذات الجذوة البيضاء ...

وحسبي أن أذكر المذهب الذي سلكه إقبال وهو يتضح في تلك المحاورة التي أجراها بين العشق والعلم .

العلم :

أنا سر الكواكب والجهات ... وفي قيدي ثوى ماض وآت
وعيني حدقت فيما أمامي ... وما نظري وراء الممكنات ؟
وكم نغمت في عودي وبوقي ... وأسراري عرضت بكل سوق

العشق :

بسحرك سجرت هذي البحار ... وملء الجو سمك والشرار
وكنت لي الصديق فكنت نورا ... ونورك مذ هجرت سماي نار
ولدت الأمس في حرم الرحيم ... وصرت اليوم في قيد الرجيم
علم فرد روضا ذا اليبابا ... ورد مشيب دنيانا شبابا
علم بذرة من نار قلبي ... أقم في الأرض فردوسا مجابا
كلانا الدهر خل لا يجور ... للحن واحد بم وزير . . .

ألست ترى في هذه الأبيات أمل الانسانية المفقود الذي ما فتئت نفوس المخلصين تتطلع إليه وهو قيام حياة يعرف فيها للعلم مكانه؛ وللمنطق القلب وشفافيته ورحمته وعشقه للمجهول فكأنه ؟ وألست ترى مشكلة العلم تتلخص في أنه لا يزال يولد في نبضة من نبضات رحمة الله الرحيم بالانسانية فما يلبث أن يتلقفه الشيطان الرجيم فيدمر به العامر، ويعذب به من يتطلع إلى الرحمات المرسلة ؟

ثم ألست تراه يضع العلم والعشق حيث يجب أن يوضعا معا في خلة صادقة لا تجور ولا تطغى ، كأنهما وتران في قيثارة يجب أن يتوازن التوقيع عليهما حتى ينتج نغما فيه ذلك (المرموز) والانسجام الموسيقي الذي يثير في النفس أطرابها وأشواقها ؟ !

وإقبال بهذا الاتجاه الصحيح المزدوج رائد من رواد الفكر الاسلامي الحديث، أنقذ به مسلمي الهند من آثار السلبية والانطلاق الشعري الصوفي اللذين يغلبان على فلسفات الهنود، ويشل قوى العقل والعمل ويحرم الانسان من الانتفاع بالقوى المادية ، وانقذ بذلك عددا كبيرا من المسلمين الهنود الماديين الحدثين الذين لا يؤمنون بغير العقل المادي على الأسلوب الغربي الحديث الذي لا يؤمن بما وراء المادة فردهم إلى حظيرة الاسلام بعد أن علموا نظرته المزدوجة إلى الوجود .

وهو كغيره من الصوفية لا يعول على العقل وحده وإنما يكبره حينما يصحب العشق ويفنى فيه . والعقل عند الصوفية عاجز جبان لا يدرك الحقائق الكبرى ولكن يتصرف في الجزئيات .

يقول إقبال :

العقل يحرق عالما في جلوة ... منه تغير
لكنه بالعشق يعرف كيف في الدنيا يسير
العشق في الأرواح يخلق كل لون أو يثير
بالعشق ترتاح القلوب وإنه ... فيها سمير
أنصت لقلبك ساعة فلعلما ... يدنو المسير

. . .

لقد قدم المترجم للديوان ولمؤلفه مقدمة وافية بالتعريف بالشاعر وفلسفته وعرانس شعره ومصادر ثقافته؛ وبين طريقته في الترجمة بما جعل هذه المقدمة من نماذج الدراسة الأدبية التي تدور حول الشاعر وعصره وعناصر تكوينه .

. . .

ألحق بديوان (بيام مشرق) « اللمعات » وهو خلاصة فلسفة الدكتور واتجاهاته وتوجيهاته وصدى لالتقاء هذين الروحين الكبيرين اللذين جمعت بينهما الأذواق والأشواق الصوفية والدراسات العميقة لآثار شعراء التصوف من الفرس والترك . والاتصال الوثيق بالدراسات الاوربية . والحضارة الغربية والفهم العميق للاسلام وروحه وعقائده

وقد أهدى المترجم هذه اللمعات إلى إقبال اعترافا بفضله إذ شرع في نظمها عقب قراءته لمنظومتي إقبال (أسرار خودي) أي أسرار الذاتية و (رموز بـ خودي)

« واللمعات » لطيف الحجم ولكنه ملىء بالتأمل والهيام الصوفى وقضايا من العقل الواعى ، وخلوص النفس من الشوائب والقيود ، استنهاض القوى الذاتيـة ودفعها نحو الكمال والقوة والحرية وأشراف الأمور ، والأحكام الصادقة على الاخلاق والأعمال ، والتوجيهات الموفقة للشباب .

وحسبى أن أسرد عليك أبياتا من بعض قصائده لترى الآفاق التى رادها : لقد افتتح الديوان بطولة بدون عنوان سار فيها على درب الصوفية وحشد فيها كثيرا من الخواطر والصور والتوجيهات منها:

كنت سطرا لم يفسره أحد ... خطه فى غيبه الله الصمد
فى ضميرى كل معنى مبهم ... حرت فى الاعراب عنه بالكلم (١)
قد ثوى العالم فى قلبى وما ... خط شىء فيه إلا الحرف ما

فهو هنا صوفى رمزى أصيل تدفعه قوى العشق والاستغراق فى التأمل

ثم يسير على درب القوم وكأنك تسمع إلى الشهرزورى فى قصيدته الرائعة :

لمت نارهم وقد عسعس الليل ومل الحادى وحار الدليل

إذ يقول :

يالبيبى أوقدى ، طال المدى ... أوقدى هل على النار هدى
أوقدى يالبن قد حار الدليل ... أوقدى النار لأبناء السبيل
ارفعى النار وأذكى جمرها ... هل هذا الركب يمشو شطرها
شردى هذا الظلام الجائما ... أرشدى هذا الفراش الحائما

ثم يأخذه الهيام بنشوته فيصور انطلاقة من انطلاقات نفسه

رن فى آفاقنا هذا النداء ... فأممنا البيت يحدونا الرجاء
قد غنينا عن مبيت ومقيل ... وعن الأمواه والظل الظليل
وعن الرغبة والخوف سوى ... خلع النعلان فى وادى طوى

• • •

كل حر ضاق عنه الوطن ... وانطوى دون مناه الزمن
كل طيار على متن الفكر ... وعلى متن هيـام لا يقر

ثم يعود بعد هيامه فى عالم الرموز إلى عالم الصور الكبيرة للذاتية الإنسانية الكاملة فى الإسلام

هذا الصوت فمن هذا البشير ... ومن الهاتف بالقلب الكبير
ومن المسعد فى هذى الهموم ... ومن البارق فى هذى الغيوم
ومن الهابط فى نور السما ... هاويا فى الأرض جيلا مظلما
ومن الهادى إلى أرض الحبيب ... يعرف النهج وقد حار اللبيب
ومن السائق شطر الحرم ... وإلى الأصنام سير الأمم
ومن القارئ فى بيت الصنم ... سورة الإخلاص فى هذا النغم
ومن الحر الذى قد حطما ... من قيود الأسر هذا الأدهما
ومن الباعث فى ميت الأمم ... ثوره العزة من هذى الهمم

ثم يمضى الدكتور الشاعر على هذا النهج الواضح المشرق فى قصائد الديوان التوجيهية تحت أمثال العنوانات الآتية : (صغار الهمم) (العالم معبد) (لارهبانية فى الإسلام) (معنى التوكل) (الأمل) وفى هذه القصيدة الأخيرة معان ووصايا يجدر أن توضع دائما أمام عيون قادة البعث الإسلامى لتجدد من عزمهم وتشحذ من هممهم ليواصلوا كفاحهم فى ظل من روح الله الذى يطرد اليأس آفة الآفات لجهاد حياة الظلام

لا ترانا فى جهاد نيأس ... ليس من أمتنا من يئسوا
أشعل الإيمـان فى كل دجى ... واقدح العزم إذا الهول دجا
وصل القلب بخـلاق الرجاء ... واخلقن فى كل حين ما تشاء
إنمـا الإنسـان فكر وعمل ... يصدع الظلماء فى نور الأمل
أمل الإنسان فى القلب ضياء ... وهو فى الكف جهاد ومضاء
وقضاء الله عون الآملين ... وهو فى عون الأباة العاملين

• • •

هذه عجالة من الديوانين ، أخالصين للحق والقوة والجمال ، الزاخرين بجواهر المعانى الإسلامية يقدمها الشاعران نماذج لما فى القلب الإسلامى من مدخرات للانسانية الضالة الخابطة المعذبة.

يجدر بوزارات المعارف فى ديار الإسلام أن تضعهما أمام عيون النشء كما تكثر من وضع آداب « الترف » العقلى وعليق الغرائز ، والتصوير المكشوف للآفاق المنحطة من حياة القطيع .

وقد نشر الديوانين (جمـــاعة إقبال) فى (كراتشى) بالباكستان فى مجلد أنيق على ورق فاخر كأنه ورق الورد رونقا وبهاء.

عبد المنعم خلوف

(١) لم يكن العالم فى قلبه إلا نفيا